الأدب فى سير أعلامه :

٥ ـ تولســـــتوى

[قبة من أقسم الشوامخ فى أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه]

للأستاذ محمود الخفيف

فتى حائر

كان ليو فى نحو الثالثة عشرة من عمره حينما انتقل مع إخوته إلى قازان ؛ وكان جدهم أحد حكام قازان من قبل فكان الصبية ملحوظى المكانة فى مضطربهم الجديد وكان يصحب كل صبى منهم خادم خاص جىء به من بين عبيدهم فى ياسنايا ، وترفع الصبية عمن حولهم من الناس إلا من كانت لهم مثل مكانتهم ولذلك قلت خبرتهم بقازان وأهل قازان ...

وكانت عمتهم يوشكافا التى يعيشون يومذاك فى رعايتها طيبة القلب ولكنها لم تكن على قدر من الثقافة كبير ، وكان زوجها من ذوى الثراء يجعل أكثر وقته للموسيقا ولعب الورق إليها ؛ ولذلك كثيراً ما كان يغشى بيته جماعات من أصحابه وكثيراً ما صرف الصبية عن الجد من الأمور مشاهدتهم هذه الجماعات وأوحى إلى نفوسهم اللعب واللهو فكان لذلك سوء أثره فى دروسهم.

ولكن ليو لا يسرف فى ذلك إسراف إخوته ، بل إنه ليميل إلى عجافتهم إلى حد ما منذ أن رآهم يتغيرون عما ألفهم ، ورأى فى أذواقهم وميولهم ما يحس أنه غريب عليه جديد عليهم وما لا يسعه إلا أن ينكره منهم بينه وبين نفسه .

ولعلة ما أنكر ذلك منهم إلا لأنه لا يستطيعه لنفسه ، فقد عاوده ما يكدر نفسه من اهتمامه بهيئته وماذا عسى أن يكون وقعها فى النفوس ؛ وإنه ليطيل النظر فى المرآة فلا تعجبه أذناه الكبيرتان ولا أنفه المفرطح الواسع المنخرين ولا عيناه الشهباوان الجاحظتان بعض الشىء ولا شفتاه الغليظتان بعض الغلظ .

على أن له فى القراءة مصرفاً عن هذا ، وعزاء ومتعة غير ما يسعى إليه إخوته من متعة ؛ وهو اليوم فى الرابعة عشرة من عمره يلتهم ما تصل إليه يده من الكتب التهاماً ؛ ولن يزال مكباً على كتابه ساعات طويلة حتى لينسى نفسه ، لأنه يعيش بخياله فيما يقرأ ؛ وكان مما قرأه يومئذ كتاب ألف ليلة وقد أثرت فى خياله وحسه قصة « الأربعين لصاً » تأثيراً قوياً وكذلك فعلت قصة الأمير «قرازمان»؛ وقرأ الغلام شعر بوشكين وأعجب بقصيدته عن نابليون ، وراقته قصة «الدجاجة السوداء» للكاتب الروسى بوجورو لسكى ؛ وقرأ الأنجيل وكم تأثر قلبه بقصة يوسف فأن أثرها فيه كان على حد قوله هائلا ، ولم يزل بعد ذلك بسنين يصف ما أعجبه من وجازتها وبساطتها وصدقها ، ولم يكد يبلغ الخامسة عشرة حتى أصبح مسحوراً بجان جاك روسو ، وإنه من فرط تأثره به ليكاد ينسى كل شىء غيره ، وقد بلغ افتتانه به أنه استبدل صورة له بما كان يضع فوق صدره من صليب ، وأقبل على اعترافاته وكتابيه « إميل » و « هلويز الجديدة » فقرأها مرة بعد مرة ، وكلما أعاد قراءتها ازداد حبه لها واشتد تأثره بها . قال بعد ذلك يصف هذا السحر « كانت صفحات كثيرة منه وثيقة الصلة بنفسى ، حتى لقد خيل إلى أنى أنا الذى كتبتها لا محالة » .

ويمتلىء ذهن الفتى فى السادسة عشرة بكثير من مسائل الفلسفة ، بل إنه ليطمع أن يحل ألغاز هذا الوجود فيشغل نفسه بالنظر فى خلود الروح ووظيفة الإنسان فى هذا الكون وصلته به وإمكان وجود حياة أخرى إلى أمثالها من المعضلات والمسائل .

وينظر الفتى فى نفسه فيصل إلى رأى ، وذلك أن سعادة المرء لا تتوقف على العوامل الخارجية فى ذاتها ولكن على صلة الأنسان بهذه العوامل ، ومن ذلك مثلا أن الأنسان إذا أخذ نفسه بالتقشف وتعود الآلام ألف شقاء العيش وآلامه فان يشق به ولن يألم منه

وعلى ذلك فقد أخذ نفسه بألوان من العنف والشدة كأن يحمل بعض الكتب الثقيلة زمناً ويداه ممدودتان ، وكان يضرب جسمه وقد تعرى بحبل حتى تدمع عيناه ، ثم إنه يقنع نفسه بأن التفكير فى الموت أمر لا محل له وللأنسان أن يستمتع بالساعة التى هو فيها فالموت أمر لا بد منه والحياة أنفه من أن يُعنى بها المرء قلبه ، فليمرح الفتى ماوسعه المرح وليتصرف عن الدرس وليقبل على كل ما يلذه من طيبات الحياة خيرها وشرها وليقض وقته فى قراءة القصص وأكل الحلوى ...

ويحاول أن يتدسس إلى أعماق نفسه ليرى ماذا يجرى فى شعوره فيصل به الأمر إلى ما يقرب من الخبل . تجد ذلك فى قوله « وكنت أفكر فى أنى أفكر فيما كنت فيه أفكر » وإنه ليستغرق فى تفكيره هذا حتى ليأكل ما فى يده ذات مرة من ديدان كان أعدها طعماً للسمك أثناء صيده ثم يمج الديدان من فمه بين الضحك والتقزز .

ولا يلبث الفتى حتى يجد نفسه قد أخذه التشاؤم من جميع أقطاره ، ثم يجد نفسه مستغرقاً فى هذا التشاؤم استغراقاً ، فلافكاك له منه ولا منتدح عنه . تجد ذلك واضحاً فى عبارة جاءت له فى كتابه « عهد اليفاعة » ، ولئن كان هذا الكتاب كسابقه « عهد الطفولة » وكلاحقه « عهد الشباب » لم يكتب على أنه تاريخ حياته فأن أكثر ما جاء فيه من وصف لشخصيات خلقها وأكثر ما جاء على ألسنة هذه الشخصيات يدور حول حياته ومن كان له بهم فى هذه العهود صلة . قال « لم تشتد نزعة فلسفية فى نفسى كما اشتدت نزعة التشاؤم ، تلك النزعة التى أشرفت بى ذات مرة على حافة الخبل فقد تخيلت أنه ما من شىء أو شخص هو قائم فى هذا الوجود بجانب شخصى ؛ وأن الأشياء جميعاً ليست أشياء فقط ، ولكنها صور فحسب لاتظهر إلا عند ما أتجه بفكرى إليها ، وإنها لتختفى حين ينتهى تفكيرى فيها ؛ وقصارى القول أنى وافقت شلنج فيما ذهب إليه من أن الأشياء لا وجود لها فى ذاتها وإنما الوجود هو علاقتى بها ؛ ومرت بى لحظات وصلت فيها تحت تأثير هذه الفكرة التسلطة على إلى حالة من الخبل حتى لألتفت فى سرعة حولى كى أدرك اللاشىء ... لقد ازدهتنى هذه الكشوف الفلسفية التى بلغتها وأثارت غروري إلى حد عظيم ، وكثيراً ما تخيلت أنى رجل عظيم يكشف حقائق لخير بنى الأنسان ، وبهذا الشعور الذى انطوت عليه نفسى ، شعور الكبرياء نظرت إلى باقى البشر ، ولكنى ما واجهت أحداً من هؤلاء الفانين إلا أحسست بالخجل حياله ، الأمر الذى يحمل على كثير من العجب ، وكلما رفعت قدرى نفسى شعرت أنى أقل مقدرة لا على إظهار ما يخالجنى من شعور الرفعة فحسب ، بل كذلك على أن أعود نفسى أن أتجنب الخجل الذى يعترينى من أبسط كلماتى وحركاتى » .

وتتوزع فؤاده هواجس الشباب وأحلامه ، فبينما هو مستغرق فى تشاؤمه مسرف فيه ، إذا به يميل بغتة إلى التفاؤل فيجمع عزمه على أن يجد فى تحصيل دروسه وأن يكون خير مثال للطالب المجتهد ، ويذهب به التفاؤل إلى حد أن يعتزم العمل على أن يكون موضع إعجاب كل من يراه من الناس فان لم يتفق له هذا فى نواحى الكفاية والبطولة ، فليس ذلك بمانعه أن يبلغ مأربه فى أن يصبح أغنى بنى الدنيا وأشهرهم مكانة .

ولكنه لا تكاد تنقضى أيام على ما عقد عليه العزم حتى يعود إلى تشاؤمه وإلى بطالته ولهوه ، ثم إنه يطلق العنان لرغبات جسده ، وهو فتى قوى البدن متدفق الحيوية يكاد يلتهب مما يخالجه من رغبات هذا البدن على الرغم من إسرافه فيما يطفىء به هذا الظمأ المتصل به ؛ وما يزال به شيطانه يغريه ويزين له كثيراً من الإثم ، ويسوقه إلى مهاوى الفتنة حتى يوقع فى حبائله فتاة من الخدم ذات ملاحة فيغويها ويقضى منها وطره ! ويبلغ نبأ هذا الإثم عمته فتطرد الفتاة من البيت إلى حيث تتلقاها مهاوى الرذيلة ثم يطويها الموت قبل أوانه على صورة محزنة نكراء ...

وما يعنينا هذا الفصل إلا لأنه استقر فى أعماق وجدانه . فكان منه حين تجاوز السبعين من عمره صورة فذة لأم شخصية فى قصة تعد من أعظم آثاره الفنية وأخلدها ألا وهى قصة (البعث)

ويضطرب الفتى اضطراباً شديداً بين وساوس الشباب ، فما يكاد يخالجه الندم على ما يعده تفريطاً منه فى جنب الفضيلة ، حتى يستسلم ثانية إلى الرذيلة ، ثم يعود فيجمع عزمه على الورع والطهر والعفة وعلى أن يأخذ نفسه بالجد من الأمور ، ولكنه

لا يلبث حتى ينقاد إلى ما يوسوس له به شيطانه .

وهكذا ما يزال الفتى يتعلق بالكمال مرة ، وينحدر حتى يقرب من قرارة الانحطاط مرة ، ويرضى عن نفسه حيناً ويجثم على صدره الندم حيناً ، دون أن يستقر على وضع أو يركن إلى رأى ...

وللمرء أن يعجب حقاً من أن تشغل الفتى مثل هاتيك الأمور فى سن كسنه يومئذ ؛ ولقد كان بعد ذلك بسنين يشعر بما عسى أن تثير من عجب ، بل إنه كان يخشى ألا يصدقها المرء أو أن يردها إلى المبالغة فى القول كما ذكر ذلك فى كتابه « عهد اليفاعة » . فما كان التفكير المتصل فى الحياة والناس ، وما كانت الرغبة فى بلوغ الكمال وتلمس السبيل إلى تحقيق تلك الرغبة مما يتكافىء تلك السن ، ولولا ذلك الوضع الذى كان فيه وهو حدث لم يلتحق بعد بجامعة من الجامعات ، وحسب أنداده أن يقرأ الفتى منهم قصة أو يلهو بديوان شعر ...

ولكنه كان فيما يشبه الحى يومئذ مما يجول فى رأسه من أفكار وما يهجس فى نفسه من خواطر ، وما يلج تلك النفس الحائرة من رغبة فى السمو ومن طموح نحو المثل الأعلى ، وإن تولستوى الفتى اليوم لهو صورة مصغرة لتولستوى الكاتب العظيم فى غد ، يوم يشتغل ذهنه الجبار بالفن وبالدين وبمسائل الاجتماع ، ويوم يبحث حائراً قانطاً أول الأمر عن الغرض من هذه الحياة ، حتى تنزل السكينة عليه إذ يرى أن الغرض من الحياة يتلخص فى العمل على السمو بها نحو ما يريد الله من كمال .

وإن تحمسه للمعرفة على هذه الصورة واهتمامه بأن يبلغ ما يطمح إليه من رفعة لدليل لا يدع مجالا للريب على أنه فطر على البحث عن الحقيقة وأنه من المبافرة القلائل الذين تفطن بهم الإنسانية إلى سر وجودها ، والذين يأتون إلى العالم على فترات من الزمن ليقيموا الدليل بوجودهم فى ذاته على أن حياة الإنسان جديرة بأن يحياها الإنسان .

وإنك لتجد مثالا لما كان يعنى به نفسه يومئذ فيما جاء بكتابه « عهد اليفاعة » قال :

« كنت يومئذ فى نحو السادسة عشرة ، وكان الرفاء لا يزالون يترددون على ، وكنت أتهيأ فى فتور وكره لألتحق بالجامعة ... وفى ذلك الوقت الذى أعده نهاية اليفاعة وبدء الشباب ، كانت تقوم أحلامى على مشاعر أربعة : أولها حبى « لها » تلك المرأة الخيالية التى كنت أحلم بها دائما على وتيرة واحدة والتى كنت أتوقع أن ألقاها فى أية لحظة فى أى مكان ما ؛ وثانيها محبتى فى أن أغدو محبوبا ، فقد رغبت فى أن يعرفنى كافة الناس وأن يحبونى ، ورغبت فى أن أصرح باسمى فأجد من الناس جميعاً مايدل على اهتمامهم بما أصرح به وأراهم يحيطون بى فيسمعونى شكرهم إياى على أمر ما ؛ وثالثها أملى فى حظ عظيم غير عادى ، وقد بلغ من تسلط هذا الأمل على أن أشرف بى على الجنون ، ورابع مشاعرى وهو أهمها كان إحساسى باشمئزازى من نفسى واستشعارى الندم ، ولكنه كان ندما ممتزجا بالأمل فى السعادة ولذلك لم يخالطه الحزن ... ولقد أحسست السرور فى نفورى من الماضى وحاولت أن أجعله أكثر اسوداداً مما كان عليه فى واقع الأمر ، وذلك أنه كلما كانت ذكرياتى عن الماضى أكثر سواداً ، ظهر لى الحاضر الناصع الواضح أكثر وضاءة ووضوحا ، وتراءت لقلبى أحلام المستقبل أكثر جمالا وبهجة ، ولقد كان ذلك الصوت المنبعث فى نفسى صوت الندم والرغبة القوية الحادة فى بلوغ الكمال هو الاحساس الرئيسى لروحى فى تلك الحقبة من نموى ، وكان هو الذى رسم لى أساس نظراتى فى نفسى وفى البشرية وفيما خلق الله من كون »

وكان له يومئذ صديق فى قازان ، كان فتى طويل القامة ، عريض المنكبين حسن الهيئة ، فى وجهه ملاحة ورقة ، يبتسم عن أسنان جميلة دقيقة ، ويزين رأسه شعر مسبل ناعم ، ولكنه كان على الرغم من ذلك خجولا كصاحبه إذا لقى الناس ، بل لعله كان أشد منه خجلا وأكثر حساسية ...

وقد حبب هذا الفتى إلى تولستوى إخلاصه لما يعتقد من رأى وتحمسه له وصراحته فى التعبير عما فى نفسه مهما يكن من أمره ، وقد سأل ديا كوف ذات مرة ـ وهذا هو اسم ـ صاحبه تولستوى قائلا أتدرى لماذا أحبك أكثر مما أحب غيرك ؟ ذلك لأنك صريح لا تكتم شيئا فى نفسك ، وهكذا يجتمع الفتيان

على الصراحة فتربط بينهما ، وإنهما ليتقاربان فى كثير من ميولها ، ويتضح لها ذلك فيما يديرانه بينهما من حوار فى أمور كثيرة ، فيما يتصل بالدين وفيما يتصل بالمجتمع وأركانه من حكومة وتعليم ونظم مالية وما إليها

ولقد كان هذا الفتى شديد التأثير فى حياة صاحبه فما فرغ من محاورته مرة إلا قويت فى نفسه الرغبة فى العمل على الكمال المنشود ، والانطلاق من حياة اللهو والعبث ، تلك الحياة التى يذهب فيها العمر سدى ، ولئن لم يك لتولستوى ما لصاحبه من حسن الهيئة فليس ذلك بمانعه أن يعمل على كسب مايحمل الناس على الإعجاب به مما هو أهم وأجدى من المنظر وحسن الطلعة ، بل إنه لحافزه إلى ذلك العمل الذى يعقد عليه عزمه .

على أنه عزم كأكثر ما يعتزم الشباب فما يلبث أن يذهب فيما تحيطه به الحياة من مسراتها ومغرياتها ، ولكم اضطرب تولستوى بين عزمه وبين لهوه ، ولكم جدد العزم ثم تحلل من عزمه

وكان ديا كوف هو شخصية ديمترى فى كتابه « عهد اليفاعة » فما يفوت كاتب الفد أن يصور أشخاصه كما رآهم فى مضطرب الحياة ، ولن ينسى شيئا مما رأى أو يسهو عن أمر يتصل بما يقوم فى رأسه من فكرة مهما بلغ من ضآلة هذا الأمر ، وتلك ناحية من أهم نواحى مقدرته الفنية يوم يغدو أعظم من كتب القصة فى أدب قومه وأحد أفذاذها القلائل فى أدب أوربا كله ..

وستمضى الأعوام ويبقى أثر ديا كوف فى نفسه ، فقد كان مما أوحته اليه صحبته عبادة الفضيلة ، وأن غاية الإنسان فى الحياة العمل على بلوغ الكمال والسمو بالنفس أبدا ، وسوف يظهر أثر ديا كوف فى قصة الحرب والسلم فيما جاء على لسان «أندرى» أحد شخصيات القصة قبل معركة أوسترلتز إذ يقول « إنى أرغب فى المجد ، أرغب أن أكون معروفا عند الناس وأن يحبنى الناس ، وما لى رغبة غير هذه ، وما أعيش إلا من أجلها . . وإنى وإن كان ذلك منى أمراً مروعاً غير طبيعي لأصحى حتى بأعز الناس عندى فى سبيل لحظة من المجد والفوز على الرجال ومحبة من لا أعرفهم من الناس ومن سوف لا أعرفهم بعد أبدا

(يتبع) الخفيف

وزارة المعارف العمومية

مراقبة التوريدات

إعلان مسابقة

تعلن الوزارة مسابقة عن حاجتها إلى كتب فى الأناشيد لتلامذة المدارس الأولية والريفية والابتدائية تكون فى أربع مجموعات الأولى لتلامذة السنة الأولى بالمدارس الأولية والريفية والثانية لتلامذة السنة الثانية بهذه المدارس والثالثة لتلامذة السنة الثالثة بهذه المدارس والسنة الأولى بالمدارس الابتدائية والرابعة لتلامذة السنة الرابعة بالمدارس الأولية والريفية والسنة الثانية بالمدارس الابتدائية .

والأناشيد المزمع اختيارها تبلغ زهاء مائة نشيد تقسم على المجموعات الأربع ، ووحدة المسابقة هى النشيد لا الكتاب على أن يكون للمتسابق الحق فى التقدم بنشيد فأكثر ، وتتراوح كمية النشيد بين ستة أبيات وخمسة عشر بيتاً .

وقد حددت الوزارة للنشيد الواحد مكافأة تتراوح قيمتها بين ثلاثة جنيهات وخمسة ويقدم النشيد مطبوعاً أو مخطوطاً من صورتين ولا يتقدم به إلا منشؤه أو ورثته .

وستشترى الوزارة حق تأليف النشيد الذى تسفر المسابقة عن صلاحيته نظير المكافأة المشار إليها .

وآخر ميعاد لتقديم الأناشيد للوزارة هو يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٧ .

وقد وضعت الوزارة لهذه المسابقة شروطاً وتوجيهات خاصة يمكن المتسابقين الحصول عليها من مراقبة التوريدات بالوزارة بشارع الفلكي .

٦٨٣٦